

تأملات في تفسير معنى قوله تعالى:

(وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيَّتُ الْغَنَكَبُوتِ لَوْ كَانَ وَائِي عِلْمُونَ)

د. صلاح رشيد

المحمد لله المائل في محكم كتابه: (إِنَّ فِي خَلْقِ الْمَسَامَاتِ وَالْمَارِضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْمَالِ بَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
الْمَلَّةَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ الْمَسَامَاتِ وَالْمَارِضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ) (آل عمران الآيتان 190، 191). والمائل (سَنَرِيهِمْ عَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت الآية: 53). وقال تعالى:
(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْغَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيَّتُ الْغَنَكَبُوتِ لَوْ كَانَ وَائِي
عِلْمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْغَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُذِرِ لِمَنْ عَقَلَهُ آلِ
الْعَالَمِينَ)
(الغَنَكَبُوت: 43-41).



واستوقفني كثيرا قوله تعالى: (وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيَّتُ الْغَنَكَبُوتِ) (الغَنَكَبُوت الآية 41) ثم رجعت إلى كتب التفسير (جامع البيان
عن تأويل آي القرآن للطبري/ مختصر تفسير القرطبي للقرطبي، تفسير ابن كثير لابن كثير، تفسير البحر المحيط لأبي حيان
الأندلسي، فتح القدير للشوكاني، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المذاهب للسعدي، صفوة المتفاسير للصابوني، تفسير أهر
السعود للعمادي، فتح البيان في مقاصد القرآن للقرطبي البخاري، زاد المسير في علم التفسير للجوزي، الضوء المنير على التفسير
للمصالح، تنوير الأذهان عن تفسير روح البيان للبروسوي وتفسير القرآن العظيم للقرشي الدمشقي) ووجدت أنها أجمعت على أن
المقصود ببית الغنكبوت في هذه الآيات هو البيت المادي بمعنى المسكن الذي تتخذة الغنكبوت سكنا لها، وقد وصفت كتب التفسير
هذا البيت على أنه لا يغني عنها شيئا (الطبري) هو أضعف البيوت لا يقيها حرا ولا بردا (القرطبي) ضعيف ووهن (ابن كثير) ضعيف (ابن
حيان الأندلسي) لا بيت أضعف منه (الشوكاني) من أضعف البيوت (السعدي) أضعف البيوت لتفاهته وحقارته (الصابوني) لا يرى شيء
يدانيه في الوهن (العمادي) لا بيت أضعف منه ولا أوهن (القرطبي البخاري) أوهن البيوت وأضعفها (المصالح) لا بيت أوهن منه فيما
تتخذة الهوام (البروسوي) ضعيف ووهن (ابن كثير القرشي الدمشقي).

غير أن العلم الحديث يثبت أن نسيج العنكبوت هو من أقوى الأنسجة الطبيعية وأن صلابته تزيد على صلابة الحديد الصلب حتى سمي بالصلب الحيوي، وأن بيت العنكبوت - المسكن - هو من أقوى البيوت المعروفة من ناحية متانة نسجه الذي يستطيع أن يقاوم الرياح العاتية، ويمسك في نسجه فرائس العنكبوت فلا تستطيع منه فكاكا.

ولإيماني المطلق أن الحقائق العلمية لا يمكن أن تتعارض مع ما ذكر في القرآن الكريم فإن تعارضت فلا شك أن ما أثبتته القرآن هو الحق وأن العلم البشري قد جانب الحقيقة، فقد رجعت إلى القرآن الكريم وكتب التفسير وقواميس ومعاجم اللغة العربية وللحقائق العلمية عن العنكبوت وبيته ومعيشته وعلاقاته الاجتماعية لأرى إن كان المقصود بالآيات يختلف عن ما ذهب إليه كتب التفسير.

وكان منهجي في البحث أن قمت بتحديد المواقع التي ذكرت بها كلمة (أولياء) في القرآن الكريم لأرى بين من تكون الولاية، وهل ذكرت الأصنام والأوثان في أي آية على أنهم يتخذون أولياء، ثم بحثت عن معنى كلمة أولياء ومعنى الولاية في القواميس والمعاجم العربية، وبعد ذلك بحثت عن معنى كلمة (بيت) في القواميس والمعاجم العربية لأرى هل استعمل العرب كلمة بيت بمعنى آخر غير المعنى الدارج وهو المسكن ليكون هو المقصود بكلمة بيت في هذا المثل الذي ضربه الله - سبحانه وتعالى - في سورة العنكبوت. ثم بحثت في الحقائق العلمية عن نسيج وبيت أو (مسكن) العنكبوت لأرى مدى قوة هذا النسيج وهذا المسكن وهل هو بحق أضعف المساكن كما ذهب إلى ذلك كتب التفسير؟ ثم بحثت في العلاقات الاجتماعية للعناكب لأرى نوع العلاقة بين ذكور العناكب وإناثها وصغارها وهم آل البيت الواحد حيث تطلق العرب كلمة بيت أيضاً على الزوجة والأولاد.

ثم ربطت نتائج ما سبق بعضها ببعض لأرى إذا كان هناك احتمال تفسير آخر للآيات على ضوء ما وجدته.

نتائج البحث:

1 - كلمة أولياء في القرآن الكريم:

وردت كلمة أولياء في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة، وقد ورد ذكر الأولياء في عشرين موقعا على أنهم: الكافرون، الذين كفروا، المنافقون، اليهود والنصارى، الذين أوتوا الكتاب، الشياطين، إبليس وذريته، الظالمون والذين هادوا. وكذلك الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا والذين آووا ونصروا، والآباء والإخوان من الكفار، والمؤمنون والمؤمنات، وعباد الله الصالحين، ولم ينص في أية آية على أن الأولياء من الأصنام أو الأوثان.

2- معنى كلمة «أولياء» ومعنى الدولاية في القواميس والمعاجم العربية:

المقاموس المحيط:

الدولي: هو المحب والصديق والمنصير.

لسان العرب:

الدولي: هو المناصر.

والدولية تعني النصرة قال ابن كثير: وكأن الدولية تشعر بالتدبير والمقدرة والفضل.

3- معنى كلمة «بيت» في القواميس والمعاجم العربية:

كلمة بيت لها استعمالات كثيرة في اللغة العربية فتعني (بيتاً من الشعر) وتعني أيضاً (المسكن، وفرش البيت، والمكعبة، والقبر) وتطلق الكلمة أيضاً على (امرأة الرجل وحياله) كما ورد في المعاجم التالية:

لمعجم الوسيط: بيت الرجل: امرأته وحياله.

لسان العرب المحيط: بيت الرجل: امرأته.

قال الشاعر:

ألمأ يا بيت، بالعلياء بيت □ □ □ □ □ ولولما حب أهلك ما أتيت

قال الشاعر: ما لي، إذا أنزعها، صأيت ۞ أكبر غيّرني، أم بيت

ترتيب المقاموس المحيط: □ □ □ □ البيت: عيال الرجل.

ج: البيت: عيال الرجل

4- الحقائق العلمية عن نسيج العنكبوت ومسكنه:

تتكون خيوط العنكبوت الحريرية من بروتين يتم تصنيعه في غدد الحرير. والحرير المنتج قوي جداً ومتانته أشد من متانة الحديد الصلب وهو قابل للتمدد لضعفي طوله قبل أن ينقطع (راجع: الحشرات في القرآن، والأحاديث النبوية والتراث الشعبي الكويتي للدكتورة وسيمة الحوطي) وهو يعد من أقوى أنواع الألياف الطبيعية على الإطلاق.

وشبكة العنكبوت من القوة بمكان حتى إنها تستطيع إيقاف نحلة يزيد حجمها عن حجم العنكبوت مرات عديدة وهي تطير بسرعة ³² كلم في الساعة بدون أن تتأثر أو تتمزق (تقرير نكسيا) وتقوم شركة كندية حاليًا بإنتاج نسيج العنكبوت لتصنع منه خيوطا طبية وحبالا لصيد الأسماك وألبسة واقية من الرصاص (تقرير نكسيا يناير 2002م)، وقد قام سكان جزر المسلمون قديما بصنع شباك صيد الأسماك من خيوط العنكبوت.

ومما سبق يتضح أن بيت العنكبوت بمعنى السكن هو بحق من أقوى بيوت المخلوقات المعروفة إن لم يكن أقوىها.

5- المحقائق العلمية عن معيشة العناكب وعلاقاتها الاجتماعية:

العناكب أمّة من الأمم ويوجد في العالم أكثر من ثلاثين ألف نوع من العناكب تتفاوت في الأحجام والأشكال ونمط المعيشة ويغلب عليها المعيشة الفردية والعدائية لبعضها بعضاً، ولما يوجد إلا أنواع قليلة جداً تعيش في جماعات. والإناث أكبر حجماً من الذكور، والمزوحان من العناكب يلتقيان في الغالب وقت التزاوج فقط ويقوم الذكر قبل الجماع برقصات وطقوس معينة أمام الأنثى يقصد منها

المحد من الغريزة العدوانية لدى الأنثى، وعند انتهاء عملية التلقيح يغادر الذكر في الغالب عش الأنثى خوفاً من أن تقوم بقتله.

وقتل الذكر بعد الانتهاء من عملية التلقيح يحدث بين كثير من أنواع العناكب وأكثرها شهرة عنكبوت الأرملة السوداء التي سميت بذلك لأن الأنثى تقتل ذكرها بعد انتهائه من عملية التلقيح. أما بعض أنواع العناكب فتترك الأنثى الذكر ليعيش في العش بعد عملية التلقيح ليقوم الأبناء بقتله وأكله بعد أن يخرجوا من البيض.

وفي أنواع أخرى تقوم الأنثى بتغذية صغارها حتى إذا اشتد عودهم قتلوا أمهم وأكلوها. ومما سبق يتضح أن البناء الاجتماعي والعلاقات الأسرية في بيت العنكبوت تتصف بأنها مبنية على مصالح مؤقتة حتى إذا انتهت هذه المصالح انقلب الأفراد أعداء وقام بعضهم بقتل بعض، فهذه أنثى العنكبوت تسمح للذكر بدخول عشها لوجود مصلحة التلقيح حتى إذا قضت أربها منه انقلبت عليه وقامت بقتله وأكله، وأخرى تقدم زوجها طعاماً لأولادها، وفي نوع آخر يأكل المصغار أمهم أول ما تقوى أعوادهم.

وهذا العداء الشديد الذي يتجلى فقط بعد انقضاء المصالح، وهذه العلاقات الهشة الضعيفة بين أفراد بيت العناكب يجعل هذا البيت بحق أودى بيوت المخلوقات المعروفة.

المناقشة:

ذهبت كتب التفسير إلى أن المقصود بالمثل في الآية (41) من سورة العنكبوت هو أن مثل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورفعتهم ووزعتهم عند حاجتهم إليهم ويتمسكون بهم في الشدائد كمثل العنكبوت في ضعفها اتخذت بيتاً ضعيفاً لا يغني عنها شيئاً عند حاجتها إليه (الطبري وابن كثير وآخرون). وذهب بعض المفسرين إلى أن الأولياء المقصودين هنا هم الأصنام والأوثان (زاد المسير في علم التفسير للجوزي)، وبمراجعة المواضع التي ذكرت بها كلمة أولياء في القرآن الكريم نجد أن الآيات نصت على ذكر الأولياء في أغلب المواضع (20 من أصل 33) على أنهم من الأحياء، كما فصل سابقاً ولم تنص أي من آيات القرآن الكريم على أن الأولياء يكونون من الأوثان والأصنام، وهذا يتوافق على معنى كلمة أولياء ومعنى الولائية، كما وردت في لغة العرب حيث تعني الولائية النصرة وهي تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، والولي هو المحب والصديق والنصير، وهذه الأفعال والتصرفات لا تصدر عن جماد.

وبمراجعة الحقائق العلمية الحديثة عن نسيج العنكبوت ومسكنه نجد أن العلم الحديث يظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن نسيج العنكبوت يعد من أقوى الأنسجة الطبيعية حيث يتصف بالمرونة والصلابة التي تفوق صلابة الحديد الصلب وأن بيت العنكبوت المادي بمعنى المسكن يعد من أقوى المساكن حيث يستطيع إيقاف نحلة تفوق حجم العنكبوت مرات عديدة وتطير بسرعة فائقة بدون أن يصيبه تلف أو تمزق.

وعلى ذلك فإني أرى - والله أعلم - أنه من غير الدارج أن المقصود ببيت العنكبوت الذي وصفه القرآن بأنه أوهن البيوت هو شبكة العنكبوت التي يتخذها سكنا ومصيدة لفرائسه. بل لعل المقصود ببيت العنكبوت - والله أعلم - أسرة العنكبوت التي هي بحق أوهى الأسر ترابطا وتآلفا، كما بينا. وقد ذكرنا أن العرب استخدمت كلمة (بيت) بمعنى امرأة الرجل وعياله. وقد أثبت العلم الحديث أن العلاقة الأسرية بين العناكب علاقة تحكمها المصلحة حتى إذا انقضت المصلحة انقلبوا أعداء يقتل بعضهم بعضا كما فصل سابقا، ولما تجتمع هذه الخصال السيئة والعلاقات الهشة في أي بيت لمخلوق آخر مما يجعل بيت العنكبوت بمعنى المرأة والأولاد هو أوهن بيوت المخلوقات قاطبة.

وإذا قبلنا أن المقصود في الآية الكريمة هذا المعنى للبيت، أي بمعنى العلاقات الأسرية، فإن وصف القرآن الكريم له بأنه أوهن البيوت يتطابق مع ما بينه الله تعالى لعباده من خلال ملاحظات العلم الحديث لحياة العناكب. ويكون وجه المشبه في المثال المضروب في القرآن الكريم واضحا جدا حيث إن الذين يتخذون من دون الله أولياء إنما يتخذونهم لمحاولة تحقيق مصالح دنيوية حتى إذا تحققت هذه المصالح انقلبوا أعداء، إما في الدنيا أو في الآخرة، يقول تعالى: (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (الزخرف الآية 67) وهذه

العلاقة المؤقتة والمصلحة الدنية تنطبق على العنكبوت وأهل بيته كما ذكرنا.

ومن ناحية أخرى: إذا نظرنا إلى وجه المشبه في المثال المضروب بين الذين اتخذوا من دون الله أولياء - وأوليائهم وبين العنكبوت وبيوتها بمعنى المسكن، نجد أن الفرق كبير فالعلاقة بين الذين اتخذوا من دون الله أولياء وأوليائهم هي علاقة بين أحياء وهي علاقة محبة وصدقة ونصرة وذلك تحقيقا لمعنى الولائية. أما العلاقة بين العنكبوت وبيوتها المادي بمعنى المسكن فهي علاقة بين كائن حي وجماد فلا تتحقق الولائية بمعنى الصدقة والنصرة لعدم قدرة الجماد على التدبير والقدرة والفعل.

وتتجلى في هذه الآيات صورة من صور الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فهذه الحقائق عن بيوت وحياة العناكب لم يتم اكتشافها إلا حديثا وهي تصف بدقة واقع حال بيت العناكب على أنها أوهن البيوت حيث أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة قبل أكثر من ألف سنة من اكتشافها.

وعند النظر إلى آخر الآية المذكورة نجد أنها ختمت بقوله تعالى (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وهذا يوحي بأنهم لم يكونوا يعلمون المقصود لأن هذه الحقيقة العلمية لم تكن معروفة للبشر وقت نزول القرآن الكريم.

وفيما يمكن أن يؤخذ على أنه إيجاء آخر على أن المقصود بالمثل يختلف عن المعنى المظاهر ما جاء في الآية التي تلي المثل وهي قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبَهَا لِنَاسٍ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (العنكبوت الآية 43)، جعلنا الله وإياكم منهم.

وأختم بقولي: إن ما تقدم لا يعدو أن يكون خواطر واجتهادات أعرضها على أهل العلم لأستشير برأيهم داعي الله أن يجعل فيها صلاحا

للإسلام والمسلمين، وهي اجتهادات تحتمل الخطأ والمصواب فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

هذا والله أعلم وأصلي وأسلم على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.